حُكم الهَوى

كان لنا فى قرية . . . من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره دائماً بمشايخ الفلاحين ومن سواهم من أصحابه وغير أصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من أصحابى نمضى عنده كل عام أسابيع نطمئن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فإذا ذهبنا إليه استقبلنا بالبشر والترحاب ، ونزلنا منه فى رحب وسعة ، وقضينا وقتاً بين التنزه فى رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التى تقام لمسرتنا ، وبين المزارع الواسعة نقطع شاسع مسافاتها سعياً على الأقدام أو ممتطين متون الجياد . ولقد غرس صاحبنا فى مزارعه كثيراً من الشجر أعان خصب الأرض على نموها وكثرتها ، فكانت للسائرين تحتها ظلا ظليلاً يبعث إلى النفس أنساً ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ .

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون ، على تقدم سنّ أبيهم ، يتمتعون بلذائذ الطفولة ويرتعون فى نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العبادة . فإذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ، ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . وإذا اقترب أحدهم منه أخذه إليه فى تلطف وقبّل جبينه النقى وحدق إليه طويلا ، ثم أجلسه على ركبته ومسح شعره ، وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد . وكذلك كان غلوه فى محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلّون فناءه .

وقد انتقلنا يوماً ونحن عنده من غرف الضيافة إلى فناء رحب لنشهد ملعب خيل، اجتمع إليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من فرح كانوا

يتسابقون فيه . وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف بجوار أبيه ، فرفعه إليه وقبله وأجلسه إلى جانبه . وسرعان ما انتظمت الحلقة فدق الطبل وتقدم إلى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن والساق طويل شعر الذنب ضليع . وراض الفارس جواده ، حتى إذا تمكن من تتبع إيقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح ، يترنح ويميل ويدل ويعجب ، يرفع رأسه تارة فتمسح أصداغه « كراريت » رأس لجامه . ويتقدم إلى الأمام مسرعاً تارة أخرى فيضيف إلى نغمة المزمار نغمة صريف الأهلة الفضية التى تزين واسع صدره ، ثم إذا به كأنه ثمل انتشى فتثنت أسؤقه حتى كاد بطنه الضامر يمسح الأرض . وما هى إلا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظر يمنة ويسرة فى كبر وخيلاء . وإنا لكذلك مأخوذون برقص الجواد إذ أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه ، وأجلسه رب الدار إلى جانبه ، وقام الابن فوقف مع الأطفال الواقفين . وعاد الجواد يدهش الناس بتمايله وتثنيه ، وبدله وكبره ، ويلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة على إبدائه حين تفتنُّ فى لين الحركات ، وتثنى القد ، وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من أنغام الجمال . فلما أتم دوره خرج يتبعه الإعجاب والعطف . ودخل الحلقة جواد أشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان أكبر الفرق بينه وبين سلفه ! احتاج فارسه إلى أن يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الأول . وليت هذا الأشهب ما خرج . فإنه لمَّا أمضه السوط ومزق جنبيه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ، ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشياً عليه ؛ فقام أبوه كالمجنون يجرى إليه ليرى ما حل به ، وجعل يحدق إليه ، فإذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب ، فصاح : « يا بنى ! » صيحة سمعها الناس وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم فى كلمة عزاء لهذا

الأب الذاهل يشاركه بها فى ألمه بعد إذ دعا هو الناس ليشاركوه فى غبطته ومسرته . وأحطنا نحن بصديقنا ، ومن بيننا طبيب أراد أن يستخلص الطفل من يد أبيه ، فإذا الأب ممسك بابنه حريص عليه تختلج قلبه الزفرات وتجول فى عينه العبرات ، حتى كأنما بدا له اليأس منه ، فهو يريد أن يعانقه عناقاً أخيراً طويلا . ثم ذهبنا إلى دار الضيافة واقتدناه معنا إليها . فلما احتوتنا الدار أمسك الطبيب يد الطفل ونظر إلى وجهه . وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه ، فإذا الطفل يفتح عينيه ويجيلهما فى الغرفة وما يزال به أثر الذهول. فلما رآه أبوه رجع إلى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زايل الولد ذهوله وعاد إلى الحياة وعاوده توردة الجميل .

بعد أيام وقد انصرف أصدقائى لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأنى ، وبقى صديقنا معى يحادثنى ، أقبل علينا هذا الابن وجلس معنا . فقلت لأبيه فى ابتسامة :

– لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه. ولا أنكر عليك أن أباً يحب أبناءه حبك لأبنائك جدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .

فتنهد طويلا وقال :

– أى هم وأى شجن رأيت ! لقد قضيت طوال السنين وحياتى فى شجن وهم حتى ابيض شعرى وشاب مفرقى . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الأبناء الذين ترى . أفترانى بعد ذلك مغالياً إذا بلغ حبى لهم حد الجنون ؟ !

لم أفهم كل ما أراد أن يقول . لكننى أدركت أن له فى الحب حديثاً طويلا ، وأنه قاسى فى سبيله أكثر ما يقاسى الرجل ، ثم حصل على من أحب وبنى بها ، فأنجبت له هؤلاء الأبناء ، فشاقنى أن أقف على همه الأول وشجنه

الماضى ، فقلت : أى هم تريد ؟ لعل لك حديثاً لا تضن علىَّ بذكره ! قال :

– إنه يا صاح حديث حياتى . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر جهادى بالظفر إلا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وإنك لصديق وفىّ لا يضن عليه بشىء ، فاستمع إلىَّ :

* * *

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى بنحو ست سنوات ، جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما كساها الشباب بديع حلته أخذت قلبى محاسنها ، وفتنى جمالها ، وجعلت أختلس اللحظات لأخلو بها أحدثها متعارف القول ومألوف الحديث ، وأشعر بكل ما فى ذلك من نعمة ومتاع وحياة . ثم أحسست أن لى فى نفسها مثل مالها فى نفسى ، ففاتحتها حديث الحب ، وتعاهدنا على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، ونزداد نحن إحساساً بعظيم ما له من سلطان علينا ، حتى بلغنا من ذلك أن كنا لا نتفارق إلا على موعد للقاء ، وأن كنا نقضى ما بين اللقيين فى شوق ولهف ما أشدهما ! فلما عرف أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار . فهالنى الأمر وأزعجنى وأدخل الهم على نفسى ، وكدت أجن من فرط ما بى . ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر . ففتقت لى الحيلة أن أستعين بعجوز تتردد على بيتنا لأستطلع رأى محبوبتى فيما اعتزمت ، وجعلت أحابى العجوز بالإحسان ، وأمنحهـا أشياء ضئيلة القيمة ولكنها ذات شأن فى نفوس أولئك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتى فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى . فلما اطمأننت إلى حرصها على لقياى فكرت مع العجوز فى وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها .

ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت السنين بريد المحبين ، ومستودع سر المشوقين . وكانت لقيانا كل ليلة فى فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا فى الجامع يصليان الفرضين ، ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . فى هاته الساعة كنا نلتقى فنجدد عهدنا ، ونتذاكر حبنا ونتمتع باللحظات التى تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضى . فإذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما كان أمرّ ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل فى اللقاء !

ثم تحادثنا فى أمر الزواج كيما ينتهى ما يوجب الفراق . لكن الشعور بأن الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الإخلاص ، تخمد سعير نار الحب الذاكية ، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نفاتح أحداً من أهلنا فى أمره . وبقينا قانعين بتلك السويعة بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ما تحويه من سعادة .

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس النعيم . وإنا لجلوس ذات ليلة نتناجى إذ أقبلت العجوز قبل موعدها مذعورة تنادى بصوت مختنق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل والثبور ، قائلة : إن أبا محبوبتى عاد قبل عادته ، كأنما كان على علم بما بيننا . فإنه ما لبث بعد أن تخطى عتبة الدار أن سأل عن ابنته وألح فى المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون .

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولانى الجمود . أترانا سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يطعن شرف محبوبتى بسببى ؟ لا . لا ! إنى لن أحتمل هذا . ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر لحظة حتى ملكتنى فكرة اللحاق بأبى ومصاحبته طوعاً أو كرهاً إلى أبيها وخطبتها إليه زوجاً لى ، وملازمته حتى يذعن لما أريد . وأخبرت صاحبتى بعزمى ، وطلبت إليها أن تبقى حيث

هى حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أبيها فتدخل هى إلى الدار خفية حين يكون أبوها مشغولا بنا عما هو فيه من الهياج .

وهرولت مسرعاً إلى أبى ونادیته وكان لا يزال فى المسجد ، فخرج إلىَّ وتبعنى من غير تفكير ومن غير أن يسألنى عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رآنى عليه من اضطراب لتسوقه كى يتبعنى ويقضى طلبتى وغرضى . ولم أجد كبير عناء فى إقناعه بالذهاب من فورنا إلى جارنا نخطب إليه ابنته . ودخلنا منظرة الرجل وبعثنا له بالخبر بقدوم أبى إليه . فما لبث أن جاء متكلفاً البشاشة مطرحاً ما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبى وإن لم تخف علىَّ نظرات منه كانت تتجه أحياناً إلىَّ وبها شىء من الحنق ، بل من حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقمت من حضرتهما تأدباً ، وتلفت ساعه خروجى من المنظرة ، فرأيت العجوز تومئ إلىَّ أن أطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفى ، فجعلت أفكر فى أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت إلى المنظرة فوجدت أبى وحده ، فسألته عن جلية الأمر ، فأخبرنى أن صديقنا دهش لهذه الخطبة غير المنتظرة ، وطلب إليه أن يمهله حتى يدخل إلى أهله فيشاورهم فى الأمر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد أنه أول ما دخل سأل زوجه :

– هل جاءت البنت ؟

– نعم إنها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأنادى بها إليك ؟

– إن جارنا يخطبها لابنه . فما رأيك ؟ وهل لك علم برأيها فى ذلك ؟

– ومن لى بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة ، ودعنى أسألها .

فصاح الرجل بغتة :

– يافاجرة ! من لك بأن تعلمى ! أو ما عرفت ما بينهما وكيف يلتقيان ؟

– كيف يلتقيان ! هدئ من روعك يا صاح ! إن ابنتك من يوم احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا ، فأنى لك بتصيد أخبار كالتى ترميها بها ؟ !

– كفى كذباً يا خبيثة وأدخلى البنت علىَّ لتوها وإلا فإنى قاتلها . لن أرضى الخنا تحت سقف يظله الشرف ! أين هى ؟ .

فظهرت على الأُم سيماء الجد وقالت بلهجة الحازم القدير :

إن لم تهدئ من حدتك فلن تراها ، اقتلنى إن شئت لكنى لن أدعها تدخل على أب طائش الحلم يرمى فتاة طاهرة بأقبح سبة من غير سبب . فأما إن راجعك صوابك وأعطيت على نفسك موثقاً أن تقابلها ببشر الأب الرزين ، فستراها بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك .

فأطرق الرجل ثم خرجت الأم ، ولم تك إلا برهة حتى عادت تصحبها البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها محمر . فلما رآها أبوها كذلك وجم هنيهة احتقن أثناءها الدم فى رأسه ثم سألها :

– إن جارنا يخطبك لابنه فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :

الأمر لك وما كان لبنت أن تراجع أباها أو ترد عليه قولاً . . .

ثم أشارت لابنتها أن تخرج . فلما قاربت الباب ناداها أبوها مغضباً :

– لعلك مرتاحة لهذا الخبر ! ألا فاعلمى أن الطلاق يلزمنى ثلاثاً إن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة ! قومى من وجهى . اخرجا ، اخرجا . واعلما أنى رقيب عتيد .

ورجع الرجل من حرمه إلينا وهو فى هياجه ، ولبث زمناً سكت عنه الغضب فيه ثم قال لأبى :

– اسمع يا أخى . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا كنت لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تعلم أنى حجزت ابنتى بسبب ابنك الذى لا أسميه كى لا أغضبك . ولقد حلفت اليوم بالطلاق ثلاثاً ألا أزوجها منه ، ولن أحنث فى يمينى . ومالك عندى من الحب والاحترام لن يؤثر فيهما أمر تافه كهذا . لكن بحق هذا الحب الذى بيننا إلا عقلت ابنك عما قد يمس بيتى وما يقيم بيننا ثأراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثيرات ، وبينهن من يفضلن ابنتى . فما عليك إلا تزويجه من إحداهن . وفى ذلك . . . .

لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتنى حمى صحت معها :

– ألا لعننى الله إن لم أتزوجها ! وتعساً لك أيها الشيخ وللزمان ! وخرجت هائماً على وجهى وقد تولانى اليأس فأضل صوابى وضيق العيش أمامى ، وجعلنى أرى كل ما فى الحياة عدواً لى ، وخيل إلىَّ لحظتئذ أن لا بد لى من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتى وانتزاعها من بين أهلها والفرار بها لنقيم معاً دائماً وإلى الأبد .

وكانت ليلة قرة ، لكن السماء كانت صفواً ، وكان البدر المتألق يبعث فى لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاه بضياء رقيق مطمئن . لذلك خشيت ، بعد ما سكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ عزمى أول الليل ، أن يحس الناس بى ، وأن يكون الإخفاق نصيبى . فعرجت إلى المسجد ومكثت فيه ردحاً من الزمن أفكر فيما أنا فيه شارع . وإنى لكذلك إذ مر بخاطرى أن مباغتة الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ، ربما أدخل الجزع إلى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن ألجأ إلى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر الأمر معها . وألفيتها عند مجاز الدار مكتئبة بائسة . فسألتها عما أصابها وفاتحتها فيما اعتزمته ومنيتها أكبار الأمانى . فما زادت جواباً على ذلك كله أن قالت :

- قضى الأمر يا مولاى ؛ فقد أقفل بابهم فى وجهى ، فلا أستطيع أن أدخله بعد اليوم .

قلت : واليوم ، الآن ، هل فى طاقتك الوصول إليها ولو عن طريق الشياطين ؟

فأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبيل ! فلعنتها وخرجت قاصداً بيت محبوبتى لأتم فعلتى ولو كلفنى ذلك ما كلفنى . فلما كنت إزاء بيتنا بصر بى أبى فنادانى إليه ، فأفقت حين سمعت صوته وتوجهت نحوه ، فجعل يطمئننى بكلمات رقاق . وصحبنى حتى أمسى الليل وغلقت دونى الأبواب ، لكن ذلك لم يزدنى إلا عزماً . فخرجت بعد هجعة الناس وتسلقت جدار جارنا ووقفت إلى جانب الغرف أتسمع فلما أيقنت أن لا حسيس دلفت إلى غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب ، فانتبهت الأم وفتحت . وإذ تبينت وجهى فى ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلىّ ثانية وأدخلتنى إلى الغرفة وأوصدتها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

– بربك يا بنى ارحم أسرة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت بها إلى حضيض العار . بربك يا بنى ! بحق هاته النائمة المهدودة التى نهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار لا تجن عليها ، لا تقتل أباها المسكين . ابنتى تحبك ولكن نفذ القضاء . ارجع وأنت واجد من النسيان خير تعلة ، وفى غيرها من تعدلها مرات . ارجع يا بنى .

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتاً صلداً منتظراً أن تفرغ من خرافتها كى أحتمل فريستى وأذهب بها . وفيما أنا فى انتظارها استيقظت الفتاة وحدقت إلىّ . فلما تبينتنى على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدها وأقبلت إلىّ وتعلقت بعنقى وجعلت تبكى ، ثم قالت :

– الوداع . . .

– كلا ! اذهبي معى الآن إلى حيث أريد .

فارتجفت الفتاة ثم تمتمت :

– رحماك حبيبي بأمى وأبى ، ورحمة بى أنا أيضاً . الوداع الآن ، ولكنا سنلتقى فى المستقبل . بالله إلا ما رجعت أدراجك ، وبحق هذه الزيارة لن يكون لغيرك فى قلبى مكان ما حييت .

وأغلظت فى الأيمان وألحت وبكت ، فأخمدت عبراتها عزيمتى وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجى .

* * *

بعد هذا الحادث بأشهر زوّجها أبوها من أحد أعيان القرى المجاورة . وكانت ليلة عرسها ليلة مأتم عندى . لزمت البيت وانفردت فى غرفة من الغرف وذرفت الدمع وتولانى القنوط . وفى الصباح رأيتها خارجة من القرية فى هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس وساروا جميعاً وفى يد كل منهم نبوته ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب فى الهواء . فلما ابتعدوا رجعت إلى نفسى أفكر والحزن يفيض عنى . وإنى لكذلك إذ جاء أبى وصديق له . فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذا يرفهان عنى ، وأكد لى أبى أنه سيزوجنى من فتاة متى عرفتها نسيت صاحبتى ونسيت ما كان بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبى وعده . فعقد لى بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد المحيطة بقريتنا . وأقيم لى ولها عرس نادر المثال . فلما حضرت زوجى عندى رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى فيها نفسى ، وأجعل منها موضع حبى ، وأسدل على ما قبل يومها عندى حجاباً كثيفاً يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لى فيه سعادة وهناءة ؛ فما مضى انقضى وليس إلى إحيائه أو استعادته سبيل . وعملت لذلك بإخلاص

وجد . ووجدت من زوجى نعم المعين . وكان أكبر ما وجهت إليه عنايتى أن أخلق بيننا فى وقت قصير ماضياً طويلاً فأكثرنا من التروض والأسفار ، ووصلنا ليلنا بنهارنا لنظفر بأكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة ؛ فسرعان ما فهمت مواضع الضعف منى ، فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى ، وجعلتنى أعتقد أنى سأجد فيها ما ينسينى كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمأنت هى فيها واطمأن كثير من أهلى إلى اندثار كل أثر لمحبوبتى الأولى من نفسى وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبى . والحق أنه اشتمل نفسى هدوء صادق ، وذهب ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلابيبى إلى ما بعد زواجى ، وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى .

وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معاً إلى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر ، أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أتى محبوبتى وزوجها . وبقى الناس فى هرج الوداع ومرجه أياماً . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافران ومعهما جمع غير قليل ، فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . ألا سقياً لك يا ليلة بروز أبى للحج ! لقد جررت علىَّ مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها كاهلى ، لكنك توجتها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج إلى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا أطوف والناس فى زحمة العشاء فحتها خارج الخيمة ، فوقفت مبهوتاً أحدق إليها . ورأتنى هى أيضاً فبهتت . ثم إذا قوة قاهرة دفعت كل واحد منا نحو صاحبه ، فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس أحد منا ببنت شفة . فى تلك اللحظة الرهيبة الرغيبة ، لحظة اللقيا بعد طول الفراق ، فى تلك

اللحظة الجميلة المهوبة خيم علينا الصمت وتولانا الذهول . . . وبعد زمن خيل إلىَّ فيه أن وجودى تلاشى فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد الممسكة بيدى ، سمعت ملكى تتمتم وكأنما خنقتها العبرة :

– هكذا تنسانا ! .

لو أن الأرض انشقت ، والسماء هدت ، والجبال دكت ، لكان ذلك أهون وقعاً علىَّ من هذه الكلمة . نعم نسيتها أنا الشقى . فيم عساى أكفر عن ذنبى ؟ وأى جواب أردُّ به عليها ؟ وبعد لأى قلت :

– غفرانك صاحبتى ! لقد أحييت من نفسى لوعة لا بد لى بعدها من الظفر بك أو الموت فى سبيلك . وموعدنا غداً بعد عودتى من السفر حيث كنا نلتقى فى رعاية العجوز .

وتتاركنا . . .

تتاركنا وقد نفر من كلومى ما كان قد سكن ، وجشأت نفسى وجاشت ، وثار وجودى كله ، وصرت لا أعى شيئاً مما يدور حولى ولا أبصر إلا موعد الغد . وقضيت ليلة نابغية ملؤها الهم ، وقابلت زوجى لبعض شأنى ، فما وقع نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى نفث سمه فى حياتى ودفعنى إلى ارتكاب جريمتى .

ولم يتسع الوقت لأصب عليها جام غضبى ، فاختطفت من يدها ما قدمت وأسرعت إلى الباب ، فتبعتنى تريد أن تعرف ما بى ، فزجرتها بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها منى :

– ارجعى يا لعينة أو أنت طالق ! .

رجعت هى ، وسافرت أنا إلى السويس ، وأنزلت أبى الباخرة وعدت قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن يعلم أحد بعودتى : وقطعت الطريق بين المحطة وقريتنا واجلاً سالكاً أقرب الطرق

رغم وعورتها ويممت موعدى ، فإذا حبيبتى تنتظرنى . فلما رأتنى بادرت بالسؤال :

– كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما أحب وتحب ! .

نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟

كيف أنا ؟ . . أواه يا صاحبى لو تعلم ! لقد قضيت أيامى منذ تزوجت وأنا أقطع نفسى حسرات من أجلك . . . ولكن ! . . . مالك أنت وهذا ! . . . متعك الله بزوجك ومد فى أيام سعادتك . . ولله أيام تقضت فى هذا المكان حين كان البدر يغمرنا فى سابغ لجته ، وحين كان يحدونا الميل والعطف إلى أسباب الهناء والنعيم . أتذكر يا صاح تلك الأيام ؟ أتذكر عهودنا ومواثيقنا ؟ أتذكر مجىء العجوز تنبهنا إلى الوقت وقد نسينا الوقت ونسينا الوجود ، أتذكر مجيئك إلى أبى تخطبنى ؟ وهل تذكر تسوّرك دارنا وتعريضك نفسك وإياى للخطر ؟ ثم هل تذكر وعدى إياك أن لن يكون لغيرك فى قلبى مكان ما حييت ؟ أقسم بهذه اللقيا على غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعاراً . أقسم بحياتك أنت ما حنثت فى الوعد ، ولن أستطيع أن أحنث فيه . . . لكن . . . كل شىء يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمنى أنا أيضاً . إنه غفور رحيم .

. . . وانهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت أمام نفسى ، وتضاءل فى عينى قدرى ، ورأيتنى مجرماً بائساً شقيًّا . هذه السيدة أمامى تبلغ من علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ما تذكره الساعة حجاباً كثيفاً ، وأنسى مواثيقى وعهدى ، وأنسى قلبى وروحى ، وأنسى كل ما فى الحياة من جميل وعظيم ، وأرضى ذلك العيش السخيف الذى ألبسونى ! كلا كلا ! لابد من استعادة هذا الماضى ولو ضحيت بالحياة فى هذا السبيل .

وصح ذلك العزم منى ، فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :

– ما نسياناً لعهد سلف ، ولا فتوراً فى حب يملأ وجودى ، حصل ما تقولين . لكنى خشيت أن أنغص عليك عيشاً ربما وجدت فيه الطمأنينة . والآن أفتعدينني إن أنا طلقتك من زوجك أن تكونى لى زوجاً ؟

قالت وما تزال العبرة تخنقها وعيناها مغرورقتان بالدمع :

– وهل رأيتنى يا صديقى رجوت فى الحياة غير هذا؟

وقضينا ما بقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكرى والعتاب والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى إلى المخدع الذى أُعد لها ، وقمت أنا إلى المسجد فنلت فيه إغفاءة ما كان أحوجنى إليها بعد ليلتين مملوءتين بأقوى الإحساسات وأقساها ، وبعد سفر يوم طويل . فلما خلوت إلى نفسى ساعة الضحى أخذت أفكر فى الوسيلة لتنفيذ ما اعتزمت .

عملت جهدى ، وأفنيت كل وسائل السلم لإقناع زوجها بتسريحها ؛ فكنت كلما ازددت إصراراً ازداد هو ضنًّا بها وإمساكاً عليها . ثم أصبح الأمر بيننا عناداً ، وصار هو يرى عملى هذا جريمة أنغص بها عيشه وأفسد عليه حياته وأجنى بها على الفضيلة والمروءة ، وشاركه فى رأيه كثيرون بلغ من حنق بعضهم علىَّ أن خاطبنى مواجهة بأن ما أجترحه أكبر الكبائر .

لم يكن ذلك ليغير من رأيى ولا ليثنينى عن عزمى ، بل جاءت محبوبتى إلى بيت أهلها بإشارة منى ، وتبدلت وسائل السلم مع زوجها وسائل وعيد وتهديد . ولقد سوّلت لى يوماً نفسى أن أدس إليه من يقضى عليه ، وكنت مقدماً على هذا لولا أن وقفت هى دونه مخافة ما فيه من خطر ربما جر علينا فراق الأبد .

وإنا لفى شغل بتدبير أمرنا إذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التى تقل أبوينا عائدة من الحجاز ، فانقلب الفرح مأتماً ، وارتدت النساء ثياب الحداد ،

وأصابت الفاجعة موضع الألم من نفسى ونفس صاحبتى ، وصارت تجمعنى وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المشترك .

وانتهى المأتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزوج صاحبتى ، وذهبت أفكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، وانتهيت إلى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها . وكم تهللت هى حين عرضت عليها هذا الرأى من غير أن تفكر فيما تحتاج إليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما تريد .

على أن هذه المجهودات لم تكن شيئاً أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كى يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال إنسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ، ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ، ولا قاضياً إلا وصلت إليه . ولقد كاد الملال من هذه الجهود يصل بى إلى اليأس مرات . فلكم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى أن ما وصله غير كاف فأراد المزيد ! ولكم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة إلى رد طلبه ! وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود . . . ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى إلى الانتصار لهان علىَّ أن أترك كل شىء .

ثم صدر حكم المحكمة بالتفريق ؛ فطرت وحملت الخبر إلى صاحبتى وعانقتها عناقاً طويلاً . ولبثنا يومين ثملين بلذة النصر فى هذه المعركة الطويلة متهللين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الأيام دس إلى نفوسنا ما شغل بالنا . ذلك أن المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلالاً عند الله ؟

هنالك ذهبت إلى زوجها وعرضت عليه جلية الأمر ، وقلت له :

– يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسراً . لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزراً . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا إلى ما عملنا الوقيعة بك أو المس بشرفك ، وإنما دفعنا إليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك فى مثوبة من الله فتنطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضمائرنا ؟ .

فأطرق الرجل طويلاً يفكر ثم قال :

– لقد والله حملتمانى همًّا طويلاً . أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهى طالق . طالق . طالق . . .

فشكرت له منته ، ورجعت إلى أهلى وبلغت صاحبتى الخبر ، ثم ناديت زوجى وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون ، وقلت :

– وإنى لأخشى بعد زواجى ألا أعدل بينكما ، فإن شئت راضية سرحتك سراحاً جميلا .

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلاً جاء فيه الذين كانوا يعيبون عملى يهنئوننى ، وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق .

ورزقت من زوجتى أبناء ثلاثة : بنتاً وولدين . وهؤلاء الأبناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى أنفقه أبوهم السعيد بهم . أفتعجب بعد ذلك مما رأيت من ذهولى حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟ !

* * *

إلى هنا انتهت قصة صاحبى . وهى قصة ألقت للهوى بزمام الحكم حتى فى دور القضاء . وقد غادرت صاحبى بعدها فغادرت رجلاً من السعداء القليلين الذين رأيت فى حياتى . غادرته وأنا أغبطه على ما متعه الله به من نعمة سابغة وهناء مقيم . . .